قصة

الذهبية المهجورة

كانت ليلة صيف يتنهد فيها الجو ويصعد زفرات حارة . وحين فتحت « وسيلة » هانم عينيها كان زجاج المشرف يعكس على طنافس « الصالون » بقية من ألوان الشفق الاسيف . وابتدأت لجج الدجى تفيض فى سماء صافية وتنسال فى أفق « الصالون » وكانت جالسة على اريكة وثيرة معتمدة رأسها الجميل بيدها الناعمة .

كانت منفردة يبدو على وجهها الشاحب اثر الحزن الكمين . وما أشد مايكون الحزن احياناً فى بيئة منعمة .

قصر بديع على ضفة النيل تحتضنه الاغصان وتحيط به حديقة منسقة . وداخل مؤثث على احدث طراز ومعمور بكل أنواع الرفه . ولكن ذلك المغنى الفاتن كان يضم قلباً فى حداد هو قلب « وسيلة » هانم

لم يكد تيم العام الثانى على زواجها حتى نشبت الحرب البلقانية . وكان رفيق بك ، زوجها ، من الضباط السابقين فى الجيش العثمانى . فلم يجد بداً من السفر الى ميدان القتال .

لم يوفقا الى السعادة فى زواجهما . كان رفيق بك شديد الغيرة . وكانت « وسيلة » هانم تأبى الان تكون صاحبة الارادة .

كان يندران ينعما بيوم دون نزاع . وكانت طبيعة رفيق بك العسكرية تمنعه من الخضوع . وكان حبه القوى لوسيلة هانم يدفعه الى أشد حالات الاهتياج . حب تمكن فى فؤاده . واستحال بعد زواجه الى غيرة لاتطاق .

كانت الغيرة تفتك بقوة ارادته وتقضى على طبيعة ضبطه لعواطفه . كان يغار أن يرى وسيله هانم تطل من النافذة ويغار اذا رآها تحادث الخادم حديثاً لايسعه . ويدرك مغزاه . ويهتاج اذا رآها فى الحديقة . ويثور اذا خرجت لزيارة دون علمه .

كانت وسيله هانم تعلم ان غيرته نتيجة لحب شديد يحنه لها . غير أن اعتيادها الحرية ،

وعرفانها ان زوجها لا يملك غير بذلته العسكرية فى حين انها صاحبة ايراد ضخم ، وأنه قد بلغ العمر الذى لا تستطيع أن تبادله فيه مثل حبه . خمسين عاماً وهى بعد فى الثلاثين . وانها لم تكن تميل الى الزواج لولا ضغط ابيها ولولا ما لحظته من صدق عواطف رفيق بك... وشاءت الطبيعة ان تركب « وسيله » هانم فى أحسن صورة . المال والجمال فى حوزتها. واما « هو » فخشن عنيف لا يملك شيئاً . اذن يحق لها ان تكون صاحبة الارادة .

وأصرت « وسيله » هانم على ان تقيد علاقاتها الزوجية بهذه القاعدة .

* * *

وظلت الغيرة تسمم حياة رفيق بك . ولما طال النزاع ساء ظن « وسيلة » هانم ولم تعد تعزو غيرته الى شدة حبه . وغالباً لا يتقى وصول الغيرة بالتدريج حد الاتهام كذلك حدث اكثر من مرة أن استبدل رفيق بك خدم القصر بلا مبرر . وكان بدافع الغيرة يختار من بينهم من يثق فيه لمراقبة « وسيلة » هانم دون علمها . وطبيعى أن تحل الظلمة محل النور فى ذلك المغنى الزوجى .

وما زال رفيق بك فريسة للهواجس ميالا الى الوحدة والاستغراق فى التفكير وكان من قبل مرحا دائم البشاشة حاضر النادرة . يجمع الى ذكائه وجهاً مليحاً وقواماً معتدلا فى شىء كثير من قوة البنية . قضى فى الجيش العثماني عشرين سنة تنقل فى خلالها فى كل أنحاء الشرق . واشترك فى أكثر من معركة لقمع تمرد الوهابيين فى بلاد العرب . وأخيراً أصيب بجرح فى فخذه اضطره الى التخلى عن الخدمة فى الجيش واختار الاقامة فى مصر .

وعلى ضفة النيل فى مغنى أنيق تحتضنه الاغصان عرف « وسيلة » هانم ولم يكن فى وسعه أن يقاوم تأثير حسنها . وكان مستعدا بطبيعته لان يخضع لاول نظرة توجه اليه من غانية حسناء . وقد عاش عشرين سنة فى حياة عسكرية منعزلة عن الاجتماع وعن الخلطة بالنساء ، وامتازت « وسيلة » هانم بكل أساليب الآنسة العصرية المهذبة . واجتمع لها مع حسنها الفتان ثروة خلفها أب كان من كبار المهندسين .

وقد رزئت وسيله هانم بعد أسبوع من زواجها بوفاة أبيها الشيخ . وكان عونا ثمينا لرفيق بك فى كل شكاية يدعيها بدافع الغيرة . وكانت وسيلة هانم تنزل

على ارادته برغم ما نشأت عليه من حرية الطبع ، واستقلال الرأى ، وهى وحيدته التي ألفت أن تختار وأن تريد اولا يحول دون ارادتها حائل .

غير أن زوجها جاء على نقيض طبعها . طبيعة معادية كل العداء لما جبلت عليه من حرية الخلق . كانت خشونة رفيق بك الملطفة بعواطف قلبية حارة تصطدم بظرفها الطبيعى ، وكانت تجرح لينها وتؤثر بشدة فى نعومة تدللها .

وما زالت إلهة الغيرة تقف بينهما موقف الحسود يحول دون سعادة متحابين حتى ذبلت زهرة الحب وانقصف غصنها . وبقى رفيق بك لا يغادر القصر الا ليكى يجلس منفرداً مهموما ذاهلا عن نفسه . وظلت وسيلة هانم لا تخاطبه الا بقدر وبأشد الحذر .

أيام مريرة كابدها ذلك الزوج قبل سفره الى ميدان القتال وكان يوم توديعه لوسيله هانم على ظهر الباخره مغموراً بتسكاب من الدموع الحارة . دموع رجل عسكرى استحال أمام تمثال الجمال الذى يعبده الى طفل عزيز مسترسل فى البكاء .

* * *

ومن بعد رحيله لم يتبدل جو الحياة لوسيلة هانم . صارت تنعم بكامل حريتها دون أن يكمل استمتاعها بتلك الحرية . وفى الحقيقة ان المرأة لا تستطيع أن تستمتع بالحرية الا تحت رعاية الرجل . من أجل ذلك لم تلبث وسيله هانم ان احست بانها أسيرة لوحدة .

وكانت همومها أقوى من الترف ومن زينة الحياة . وان غيرة رفيق بك المقرونة بالنزاع لا تخلو من متاع : هو الحب .

وتمادى بها الهم فضيع منها فضيلة الصبر . وقضى على كل سلوى تجدها فى بحبوحة النعمة . وما حباها به نصيبها فى الحياة من ثروة ومغنى أنيق وعلاقات رقيقة بالطبقة الممتازة . وما يطل عليه قصرها من منظر طبيعى يطرد الهم عن النفس . تألف من ماء وخضرة وأغاريد وظلال وأشعة تبرق على صدر النيل بريق الماس .

ولكن لا النعمة ولا العلاقات ولا الطبيعة استطاعت أن تشرح صدرها . ظلت أسيفة لا يفارقها الضجر . وكانت تحمل — برغم زواجها — قلباً لم يرو غلته من معين الحب وتعيش بعواطف لم تشبع بعد من نهلة التبادل .

وساورتها الهواجس ولم تعد تقاوم الاستغراق فى التفكير.

. . . . . .

فى تلك الليلة التى كان يصعد فيها الجو انفاسا حارة فتحت وسيلة هانم عينيها فى ظلام مخيم على سماء «الصالون» وكانت قد استغرقت فى التفكير والذكرى حتى استحال رأسها المتوج باكليل بديع من الشعر الذهبى الى لوحة تعرض صور الماضى والحاضر بألوانها الحقيقية وتليح فى خطوط غامضة بصور الغد المستكن فى اعماق الغيب وحتى استولى الغمض على عينيها الزرقاوين ، بينما كانت اهداب الدجى تنعقد على سماء مخضبة بدماء الشفق .

وتلاطمت امواج الليل فى سكون ولم يعد يسمع للطبيعة النائمة خفيف ولا تغريد ولا حركة بجذاف تضرب صدر النيل الجارى فى مثل عمق الليل من تحت شرفة القصر .

كانت نفسية الطبيعة فى تلك الليلة متفقة بالمصادفة مع نفسية وسيلة هانم اظلال اسيفة واشباح ساكنة ونهر بلا أمواج وجو يتنهد تنهدات ملتهبة وليل حالك يضاهى النهر فى عمقه .

ودخلت الخادم وحركت الزر الكهربائى فانجابت الظلمة عن الصالون فامرتها وسيلة هانم ان تفتح زجاج المشرف واذ ذاك وصلت اليها انفاس الجو الفاترة .

ولما انصرفت الخادم نهضت وسيلة هانم متثاقلة كأنها تعبت من الراحة . وكأن قد اضناها الفراغ الطويل .

نهضت واتجهت الى المرآة لكى تصلح من شأنها وتهذب من زينتها كما لو كانت تنتظر مقابلة او زيارة .

ووقفت فترة امام المشرف تسرح نظرها فى الطبيعة النائمة فى الوادى الذى يحتضنه الجبل وتشرف عليه الاهرام . وكان القمر وقتئذ يحاول ان يزحزح بنوره عبء سحابة سوداء .

ثم دقت الجرس الى الخادم وأمرتها أن تعدلها اثوابها وأبدت فجأة رغبتها فى الخروج .

وكانت الساعة الثامنة !

ولم تستطع الخادم ان تبدى اية ملاحظة وما ينبغى لها وكانت تعلم من اصرار مولاتها

على تحقيق رغباتها انها لاتبالى بالزمن ولا بالنصيحة. وكان ذلك من بواعث النزاع الدائم بينها و رفيق بك .

* * *

ولكن الفضول حمل الخادم مع ذلك الى توجيه هذا السؤال : الى اين يامولاتى ؟

فاجابت وسيله هانم دون اهتمام : الى الذهبية .

فابتسمت الخادم خلسة و كانت تعلم ان مولاتها لم تعرب فى أى وقت عن رغبتها فى زيارة الذهبية . وهى تلك الذهبية التى اهملت على ضفة النيل منذ عشرات السنين . لم يفكر احد يوما فى العناية بها أو الانتفاع منها .

وحمل الفضول الخادم مرة ثانية فقالت . ولكن الذهبية مهملة منذ زمن طويل ولم تامرى احداً من الخدم ان يتولى اعدادها لزيارتك . ماذا يكون لوانك ياموالاتى لم تجد فيها مجلسا ملائماً ؟

فاعرضت عنها واجابتها : لا شأن لك

وتهيأت وسيلة هانم للخروج فى هدأة الليل . وامرت الخادم ان ترافقها و ظلت تتبع بخطوانها المتوانية ضفة النيل . وكانت مصابيح الغاز الضئيلة النور تتخلل الاشجار الباسقة فى صف طويل ومن ورائها النيل ساكن الصدر .

ولم تلق وسيلة هانم فى طريقها الا بعض القرويين آيبين الى بيوتهم ولم تكن مسافة بعيدة بين القصر والذهبية وتكاد تكون شبه امتداد لحديقة القصر .

و بلغت بخطواتها المتوانية مرسى الذهبية . و كانت اخشابها قد تصدعت واداتها مهملة مبعثرة مكسورة الكوات بلا سلم يصعد اليها وكان يبدو ان ليس بها فرش ولا مقعد يمكن الجلوس عليه . وبالاختصار كانت شبه ضريح سابح فوق صدر النيل . وكأنها قطعة مختزلة من هيكل العزلة راسية فى معين من الهجر ؟

كيف شاءت وسيله هانم ان تزور فى وحشة الليل ذلك البيت الخرب !

وقفت تصافح بنظرها الذهبية المتصدعة ومن خلفها الخادم كانهما فى موقف حداد فيه من ظلمة الليل ومن سكون الطبيعة ومن اعتلال انفاس الجو ما يتفق وروح الاسى البادى على الذهبية المهجورة . الذهبية المنعزلة الخاوية على ضفة النيل الهاجع .

ولم يمض وقت قصير حتى اقبل نحوهما رجل معتدل القامة وجيه الطلعة لم تتبين الخادم ملامح وجهه لاول وهلة ولكنها رأت فيه شبها لمولاها رفيق بك .

وتقدم الرجل الغريب بجرأة مبتسما و بسط يده لمصافحة وسيله هانم . واذ ذاك ابصرت الخادم انه صورة اخرى لمولاها لولا انه ذو لحية مهذبة جميلة .

وقد صافحته وسيله هانم بلا كلفة واخذت بيده كأن معرفة سابقة بينهما منذ زمن طويل . ولم تعلم الخادم ان لمولاتها اقارب أو أصدقاء تقابلهم تحت جنح الليل . كانت تعلم ان خروجها من القصر غير مباح الا باذن وأن الحصول على ذلك الاذن كان صعبا عسيرا . واحيانا كان مستحيلا دون نزاع وشجار بينها وبين رفيق بك .

وساورت الظنون الخادم حين رأت مولاتها تمشى مع ذلك الرجل الغريب جنباً الى جنب . وحين رأتهما يتساران .

وكانت وسيلة هانم لا تبعد عن الذهبية فى سرارها مع ذلك الغريب الا لكى تمسك بيده وتعود به الى موقفها الاول .

وجعلت الخادم تتبعهما بنظرها تراقب كل حركة وكل اشارة تصدر منهما . وقد أذهلها مسلك مولاتها . وساءت ظنونها . ولم تعد تذكر من تاريخ وسيلة هانم العفيفة الا موعدها تحت جنح الليل مع رجل غريب . ولم تعد تذكر من أفعال مولاتها الكريمة السخية، الا انها خانت زوجها الذى سافر لكى يدافع عن بلاده .

وطال السرار بينهما فى سكون الليل على كثب من الذهبية المهجورة . وكانت انفاس الهواء قد بردت وابتدأت تحرك اغصان الشجر . وتموجت الظلال السوداء تحت ضوء القمر الساجى .

ولبثت الخادم منصوبة كالناطور تراقب حركات العشيقين .

وأخيراً أمسك الرجل المجهول بدوره يد وسيله هانم ووقف بها أمام الخادم وكان قد انتهى السرار بينهما

ولم تستطع هذه الاخيرة ان تتبين ملامحه تحت ضوء القمر . وما كان اشد دهشتها حين لمحت الشبه التام بينه و بين مولاها رفيق بك .

وكانت وسيلة هانم تحادثه بمودة ظاهرة . وقد رأته يقبل يدها كأنها تعرفه من

زمان طويل . وحتى وهمت الخادم انه مولاها قد اختار ان يترك لحيته .

ولاحظت انه حين افترق منها حدق فيها بنظر حاد و بدرت منه حركة عصبية لم تلحظها وسيلة هانم .

وحاولت الخادم بلاجدوى ان تعرف شخصية الرجل الذى تتواعد معه مولاتها فى غياب زوجها . وقد وقفت امامه ووجهها لوجهه دون ان تجرؤ على بادرة فضول او حركة استطلاع وقفت ساكنة وقد جبن قلبها وانكمش حتى لم تعد تملك أمام الرجل المجهول الوقوف فى حالة عادية .

وصافحت وسيلة هانم رفيقها ايذانا برغبتها فى الرجوع الى القصر فقبل يدها للمرة الثانية التى لفتت وجهها و أحمر وجه وسيلة هانم و انصرف الرجل المجهول منسلا بين الاشجار .

وعادت الخادم تتبع مولاتها فى الطريق المؤيدة الى القصر ، و قد أطرقت وسيلة هانم برأسها مفكرة . وعلمت انه ليس ثمة بد من اجابة الخادم على سؤال قد يصدر منها بدافع الفضول . وفى الحقيقة أنها لم تبعد الا قليلا عن الذهبية المهجورة حتى اقتربت منها الخادم وقالت :

ــ ما أشبه ذلك الرجل بمولاى رفيق بك لولا لحيته !

فأجابت وسيلة هانم مبتسمة وكأنها فى نشوة من لقياها برفيقها المجهول ــ لعله هو !

ــ كلا . . ولكنه وجيه الطلعة مثله . وأشد شبها به من شقيق ! . .

ــ هو زميل رفيق بك فى الجيش . جاء ليخبرنى بأن زوجى قد يبقى فى تركيا الى فصل الشتاء .

غير أن فضول الخادم لم يقتنع و بقى متعطشا الى جواب أكثر اقناعاً .

فاندفعت بغريزة حب الاستطلاع و كشف الاسرار المعهودة فى الخدم وقالت ــ ولكنك يا مولاتى لم تشيرى الى هذه المقابلة حين رغبت فى زيارة الذهبية .

أجابت وسيلة هانم فى تأفف ظاهر ــ لا تسأليني أكثر من ذلك .

فلازمت الخادمة الصمت ولكن برغمها !

* * *

« ترى هل كانت مقابلات سابقة بين وسيلة هانم و بين الرجل المجهول قبل هذه

الليلة ؟ . . هذا ما جعلت الخادم تفكر فيه بعقلها الضيق . واجتهدت فى أن تتذكر شيئا ينم عن خروج مولاتها سراً من القصر فلم تهتد ، فحدثت نفسها بأن من الممكن أن يكون أحد الخدم على علم بشىء من سر هذه المقابلة الليلية .

ولما عادت ومولاتها الى القصر دخلت وسيله هانم تواً إلى غرفة الزينة وأغلقت الباب من خلفها وكانت المرة الاولى التى رغبت أن تخلع فيها ملابسها بمفردها فانصرفت الخادم من بعد أن أضاءت الثريات .

ولم يكن فى وسعها أن تكتم عن سائر الخدم ما جرى على كثب من الذهبية المهجورة الا أنها لم تجد من بينهم أحداً يعلم شيئاً عن علاقة صاحبة القصر بذلك الرجل المجهول ، ولما علم الخدم أنه يشبه مولاهم الغائب شاقهم أن يروه ، وضحك البعض من ذلك حين ذكروا غيرة رفيق بك وثوراته الجنونية .

« مقابلة سرية لوسيله هانم فى الظلام عند الذهبية ! »

كان هذا موضوع حديث طويل لخدم القصر مجتمعين فى الطابق الأسفل . بينما كانت وسيلة هانم قد لجأت إلى خدرها وفتحت نافذته المطلة على النيل وجلست تفكر وتحلم

وقد رطب الليل الهواء ، وتحركت الاغصان فى الحديقة حركة حزينة ، وكأن السماء والماء والأرض والاشجار وقتئذ تسيل صمتا ، سكون عميق ساد الطبيعة ، وكانت أهداب الظلام الطويلة الحالكة تتدلى كأشباح الشياطين فى الافق ، ولم يكن هناك من شىء حى متحرك فى الطبيعة الساكنة الا فؤاد وسيلة هانم .

فؤادها الذى تملكته الحيرة ـ حيرة الزوجة التى انقادت الى الغواية ـ حيرة مقرونة بالوجل وتبكيت الضمير

ولقد كان سر هذه الغواية مكتوما فانفضح أمام الخادم ، وانه سوف ينفضح أمام الآخرين مقدار ما يكون ميل الخادم الى النميمة .

و ندمت وسيله هانم على أنها رافقت خادمتها الى موعد الذهبية المهجورة ، وتطلعت الى السماء بعينيها الزرقاوين الصافيتين كأنها توحى اليها بسرها المكنون . سر ذلك الموعد الذى ارادت ان تروى به ظمأ قلبها الى الحب .

ولكن متى كان تعرفها على ذلك الرجل المجهول ؟ وكيف ابتدأت العلاقة الغرامية بينهما ؟

بقى ذلك سر مكتوم الى أن ذهبت ذات ليلة برفقة الخادم الى موعد آخر امام الذهبية المهجورة وهناك اقترب شبيه رفيق بك من وسيله هانم وقد احمر وجهه وحدق فى الخادم بنظر حاد وبدرت منه الحركة العصبية عينها ثم وضع يده فجأة على لحيته وانتزعها بخفة والتفت الى وسيله هانم.

عند ذاك صاحت وسيله هانم صيحة فزع وسقطت مغشياً عليها .

واستولى الرعب الخادم التى تحقق حسبانها فى أن الرجل للغريب مولاها رفيق بك . وانكشف لها سر الفصل المحزن الذى مثل أمامها .

ووقفت جامدة لاتستطيع حراكاً ، وبقيت وسيلة هانم ممددة على الأرض فى غيبوبة .

وكأن الطبيعة أرادت أن تسدل على هذا الفصل الدرامى ستاراً يخفيه عن الانظار فاحتجب القمر من خلف السحاب .

وبدا كأن المصابيح قد تضاءل نورها وان الظلام قد ناء بكلكله على الوجود.

ولو أن وسيلة هانم خيرت فى هذه الحالة لاختارت ان تظل فى غيبوبتها عاما !

* * *

كان الرجل المجهول رفيق بك نفسه عاد من ميدان القتال متنكراً وأراد بدافع الغيرة أن يخبر وفاء زوجه

ولم يكن يجهل أنها تزوجته أول الامر نزولا على ارادة أبيها . وعبثا حاول أن يتحملها بقوة حبه على ان تبادله مثل عواطفه وبقيت علاقاتها الزوجية معه بالعقل لا بالقلب .

وظل فؤادها بعد الزواج متعطشا الى الحب. الحب الذى كانت تستطيع ان تبادله بزوجها لكى تسعد أيام حياتها .

* * *

وقضى حظ وسيله هانم التعس ان تعيش بلا رشد من بعد زيارتها للذهبية المهجورة

وكانت فى جنونها تحدث نفسها كل من رأت بقصة حبها للرجل الثانى . . وكانت تنكر انه رفيق بك . انها كانت تقول « هبطت حديقة القصر فى اصيل يوم دون أن يحس بها بها الخدم . »فرأت« الرجل الثانى« يرود حول السور .فلم تتردد فى سؤاله عن غرضه . واذ ذاك عرفت انه صديق زوجها جاء لينبئها بان رفيق بك سيبقى فى تركيا طول فصل الشتاء .

وكان ما كان على اثر تلك المعرفة .

معرفة « الرجل الثانى »! و بقيت «وسيله» هانم فى ذهبية اخرى مهجورة ولكن فى قصر فخم . بقيت«وسيله» هانم الحسناء الرقيقة المتظرفة حبيسة فى القصر الذى كانت لاتخطر فيه إلا لكى تثير الاعجاب فاصبحت تثير الاسى والرثاء .بقيت شهيدة زيارتها للذهبية المهجورة

المتلة الاولى — انت اتجوزت تانى
« الثانية — من زمان
« الاولى — اسمه ايه جوزك الجديد
« الثانيه — والله نسيت - ولكن الكرت معاى فى الشنطة